

أبومدين شعيب بن الحسين الغوثي (سياحة روحانية وعلمية)

أ/ أبومدين بن عدّة¹

ننشر هنا مقدمة الديوان مع بعض الأشعار من كتاب سيصدر عن «وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائرية» ضمن برنامج تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011م .

هو الشيخ العارف المحقق الواصل الموصل القطب، أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي الأصل، كان رحمه الله فردا من أفراد الرجال، وصدرا من صدور الأولياء والأبدال، جمع الله له بين الشريعة والحقيقة، كان هاديا داعيا للحق يقصد بالزيارة من جميع الأقطار، واشتهر بشيخ المشايخ. ولد في إشبيليا بالأندلس، وتعلم في فاس بالمغرب، وأقام وعلم ببجاية شرق الجزائر، وتوفي ودفن في العباد بتلمسان، وضريحه هناك يزار.

ترجع بعض المصادر الموثوق بها، تاريخ ولادته إلى سنة 609 هجرية بإشبيليا على ما ذكرنا، بها نشأ وتربى. توفي والده فيما يبدو وهو صغير، وكان له إخوة يكبرونه سنا، فأسندوا إليه رعي غنيمات لهم. كان يخرج بالغنم للمرعى ليرعاها، ولكنه كلما رأى مصليا أو قارئ قرآن اقترب منه متأملا أو منصتا متناسيا شويهاته، وكان يعبر عن هذه الحال لأخوته فينهونه ويزجرونه.

عزم على أن يتعلم القرآن، ولم يتأتى له ذلك إلا بمفارقة المكان الذي كان فيه، والعمل الذي تولاه، ففر من البيت، ولحقه أحد إخوته وأرجعه وهدده بالحربة إن هو أعاد، وفر ثانية ولحقه أخوه وضربه بسيفه فتلقى الضربة بعمود كان بيده، وأعاد الفرار مرة ثالثة.

1 - من مقدمة ديوان الشيخ أبي مدين الغوث الذي سيصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

تابع طريقه إلى شاطئ البحر، فاستوقفته خيمة بها شيخ أوى إليه وطلب مساعدته، فأقام عنده أياما رأى فيها الشيخ كلما اشتد الجوع به، رمى بخييط في طرفه مسمار، فيأخذ حوتا ويطعمه إليه مشويا، ثم قال له (انصرف إلى الحاضرة حتى تتعلم العلم فإن الله تعالى لا يعبد إلا بالعلم).

استمع الفتى لرأي الشيخ وانتقل إلى المغرب وجال في سبتة وطنجة بالشمال، واشتغل مع الصيادين، ثم انتقل إلى مراكش بالجنوب وانخرط في سلك الجندية وفيها عرض أمره وغايته على من رآه نصوحا فقال له عليك بفاس.

يقول متحدثا عن نفسه: «سرت إليها، ولازمت جامعها، ورغبت في من علمني أحكام الوضوء والصلاة، ثم سألت عن مجالس العلماء فسرت إليها مجلسا بعد مجلس». وفي هذه المجالس أخذ عن شيوخ ولازمهم، ومال عن آخرين، وممن لازمهم وأخذ عنهم واعتز بهم كثيرون، أشهرهم:

الشيخ أبو يعزى يلنوز (ت 572 هـ) والشيخ أبو الحسن علي بن حرزهم (ت 559 هـ) وقرأ عليه رعاية المحاسبي، والشيخ أبو الحسن بن غالب فقيه فاس أخذ عنه كتاب السنن لأبي عيسى الترمذي، والشيخ أبو عبد الله الدقاق أخذ عنه طريقة التصوف ومعه أيضا الشيخ الحسن السلاوي.

هذا في المجالس، أما تعليمه الأساسي فقد سأله الفقيهان أبو محمد عبد الحق الإشبيلي، وأبو علي المسيلي أنهما سمعا عنه أنه انتهى إلى سورة «تبارك الذي بيده الملك» وأنه لم يزد عليها؟ فأجابهما: «نعم كانت سورتي فوجدتها سدرتي، ولو تعديتها لأحرقنتني سبحات الوجه الكريم». وهناك تعليم آخر كان يتلقاه القدماء في رحلاتهم، ويجازون عليه من رجاله بمجرد التعرف على مالهم فيه من باع طويل أو في لقاءات قصيرة مثمرة كلقاء سيدي أبي مدين بسيدي عبد القادر الجيلاني في البقاع المقدسة.

توجه الشيخ أبو مدين إلى الشرق، وأنوار الولاية عليه ظاهرة، فأخذ عن أعلام العلماء، واستفاد من الزهاد والأولياء، وتعرف في عرفة بالشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني، فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الأحاديث، وألبسه خرقة الصوفية، وأودعه كثيرا من أسرارها، وحلاه بملابس أنواره فكان أبو مدين يفتخر بصحبته، ويعده أفضل مشايخه، وفي رحلاته يقول ابن العربي: تردد في بلاد إفريقيا، واستوطن في الآخر بجاية وكثر تلامذته وظهرت بركاته عليهم.

بعد هذه الرحلات المتفاوتة في الزمان والمكان وبين الرجال، استقر في بجاية وشرع ينشر طريقته بين الناس التي يقول فيها: «وطريقتنا هذه أخذناها عن أبي يعزى بسنده، عن الجنيد عن سري السقسطي عن

حبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن علي رضي الله عنهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن جبرائيل عليه السلام، عن رب العالمين جل جلاله». وقد أخذ هذه الطريق عنه ما يزيد عن الألف في حياته كما ترويه الآثار الموثوقة ولا تزال سارية يعتنقها كل يوم، جيل جديد، بعقل متجدد.

عاش مع سيدي أبي مدين و في عصره، رجال مازالت أسماؤهم مذكورة وأعمالهم مشهورة، قد قضوا جميعهم نحبهم والتحقوا بمن أحبوا وأحبهم وهم كثيرون، نعتذر عن عدم ذكر جميعهم وليس من ذكرناه يفوق غيره فضلا أوكرامات، ومن هؤلاء: الشيخ أبو عبد الله التاودي (ت580هـ) ولنا عودة إليه، والشيخ الشهير العالم المحدث الصالح الخطيب القاضي العدل أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمان الإشبيلي صاحب الأحكام الكبرى والصغرى (ت582هـ).

ومن أصحابه الشيخ الصالح أبو علي حسين بن محمد الغافقي الصواف، لازمه ثلاثين سنة ولم يفارقه إلا بالموت، كان من قرية العباد. وحدث عنه أخباراً ورأى أسراراً، وانتفع على يده وتحسر عليه بعد موته. والشيخ الصالح أبو علي عمر الصباغ وكان صاحب مكاشفة، وهو الذي قال: «صليت المغرب مع الشيخ أبي مدين، فرأيت وأنا في الصلاة ثلاثاً أو أربعاً من حور العين، فلما سلمنا من الصلاة أخبرت الشيخ أبي مدين بما رأيت فقال لي: وهل رأيتهن؟ قلت نعم، قال: أعد صلاتك فإن المصلي إنما يناجي ربه، وأنت إنما ناجيت الحور العين».

ومن أصحاب الشيخ سيدي أبي مدين، الشيخ الصالح الولي أبو عمران موسى الحلاج، كان يلج القطن بفاس فلما شاعت عنه العجائب من المكاشفة والحديث بخفايا الأمور، خرج من المغرب مشرقاً وانتهى إلى بجاية فقصد الشيخ أبا مدين، فقال له سيدي أبو مدين وهو يعرفه: «ما إسمك؟ فقال: موسى فقال له سيدي أبو مدين وأنا إسمي شعيب وقد أمنت، فإن موسى عليه السلام لم يأمن حتى لقي شعيباً».

هؤلاء رفاقه ومعاصروه ومعاشروه ممن ذكرنا، ولا نغفل الإشارة إلى تلاميذه وهم كثيرون أيضاً ومن أشهرهم: أبو عبد الله محمد بن أبي أحمد عبد الله الصفار دفين قسنطينة، والخطيب حسن بن الخطيب علي صافحه وعاهده، وسلك طريقه وساعده، وقصد الله في مصاهرته ومما يحكى عنه، أنه كان قاصدا الحج في جماعة فاعترض سبيلهم لصوص وسلبوهم، ولكنهم أرجعوا للخطيب فراشه، وقد كان دس فيه شائبة الشيخ مربوطة مع نفقة صالحة أعدها للرحلة.

هذا، ولكثرة تلاميذه وانتشا رهم وتفاوت معارفهم، نكتفي بالذي ذكرناه منهم. ولا ننهي الحديث عن الشيخ بدون أقوال بعض الرجال فيه وشهاداتهم له بما كان عليه من معارف وكرامات.

قال فيه التادلي: كان الشيخ سيدي أبو مدين، هاديا للحق يقصد بالزيارة من جميع الأقطار، واشتهر بشيخ المشايخ. تخرّج على يده ألف شيخ من الأولياء وذوي الكرامات... كان مبسوطا بالعلم مقبوضا بالمراقبة كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى... ولقد أخبرني من شهد وفاته، أنه رآه في آخر الرمق يقول (الله الحق) وكان من أعلام العلماء، وحفاظ الحديث... هذه واحدة من كثير الشهادات والإعترافات والتقدير التي سجلها التاريخ لشيخ المشايخ سيدي أبو مدين.

ومن كراماته رضي الله عنه، أن رجلا حضر مجلسه وكان ينوي معارضته، فلما استقر الشيخ في موضعه من المجلس، قال لهذا الرجل: ما جاء بك؟ فقال: طلب الإستفادة منكم، فقال له الشيخ: أخرج ما في كحك فإذا فيه مصحف فقال له الشيخ: افتح المصحف وقرأ أول آية تطالعك، ففتح الرجل المصحف فإذا أمام عينيه هذه الآية ﴿الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾¹ فاعترف الرجل بما كان ينويه، واعتذر للشيخ عن موقفه، ورجاه أن يدعو له بالهدى.

وقد ترك الشيخ سيدي أبو مدين، رحمه الله؛ لمن بعده آثارا منظومة جُمعت في الديوان الذي نحن بصدد إعادة طبعه بتوفيق الله. وآثارا منثورة هي عبارة عن حكم ومواعظ ووصايا، نفتطف منها زهرات مما يلينا دون اختيار لأنها جميعها مختارة راقية ممتازة عطرة فواحة. ومن هذه النفحات، قوله: الحق سبحانه وتعالى يُجري على ألسنة علماء كل زمان ما يليق بأهله، وإذا ظهر الحق لم يبق معه غيره.

وقال: عمرك نفس واحد فاحرص أن يكون لك لا عليك، وليس للقلب إلا وجهة واحدة، فمهما توجه إليها حُجب عن غيرها.

وقال: من خرج إلى الخلق قبل حقيقة تدعوه إلى ذلك فهو مفتون، وما وصل إلى صريح الحرية من عليه لنفسه بقية.

وقال: أنفع العلوم العلم بأحكام العبيد، وأرفع العلوم علم التوحيد، والحمية في الأبدان ترك المخالفة بالجوارح، والحمية في القلوب ترك الركون إليها، والحمية في النفوس ترك الدعوى.

1 - سورة الأعراف، الآية: 92

وقال: الخوف سوط يسوق ويعوق، يسوق إلى الطاعة ويعوق عن المعصية، ومن نسب إلى نفسه حالا أو مقاما فهو بعيد عن طرقات المعارف، والتوكل توكل بالمضمون واستبدال الحركة بالسكون.

وقال: الأجسام أقلام، والأرواح ألواح، والنفوس كؤوس، ومن اكتفى بالكلام في العلم دون الإتيان بحقيقته فقد تزندق وانقطع، ومن اكتفى بالتعبد دون فقه خرج وابتدع، ومن اكتفى بالفقه دون ورع اغتر وانخدع، ومن قام بما يجب عليه من الأحكام تخلص وارتفع.

وقال: كن مع الفقراء بالأنس والإنبساط، ومع الصوفية بالأدب والإرتباط، ومع المشايخ بالخدمة والإتعاظ، ومع العارفين بالتواضع والإنخفاض، ومعاملة كل شيء بما يؤنسه ولا يوحشه، فمع العلماء بحسن الإستماع والإفتقار، ومع أهل المعرفة بالسكون والإنتظار، ومع أهل المقامات بالتوحيد والإنكسار.

هذه نبذة من حياة شيخ المشايخ سيدي أبو مدين وآثاره. ولو تتبعنا كل أعماله وكراماته مما رواه عنه الرواة، لتحول هذا الموضوع إلى غير ما أريد منه. ولمن أراد المزيد من الإطلاع والتوسع، فليرجع إلى ما في آخر هذا المؤلف من مصادر ومراجع.

وبعد هذه الجولة المختصرة الوجيزة في حياة سيدي أبو مدين نقف على ما يُروى عن وفاته.

تسجل المصادر أنه لما اشتهر أمر الشيخ وذاع صيته من بجاية إلى جميع البقاع، وشي به أحد علماء الظاهر عند يعقوب المنصور، وقال له إن له شبيها بالإمام المهدي وأتباعه كثيرون في كل بلد، فبعث المنصور إلى الشيخ يستقدمه إليه، وكتب لأصاحبه في بجاية أن يعتني به ويحمله خير محمل، وعندما أبدى بعض رفاقه تبرمهم من هذه الرحلة، قال لهم: إن منيتي قربت، وبغير هذا المكان قدرت، ولا بد لي منه، وقد كبرت وضعفت لا أقدر على الحركة، فبعث الله لي من يحملني إليه برفق، ويسوقني إليه أحسن سوق، وأنا لا أرى السلطان وهو لا يراني، فطابت نفوسهم وذهب بؤسهم وعلموا أن ذلك من كراماته.

بدأت الرحلة من بجاية حتى وصلوا قرب تلمسان وظهرت رابطة العباد، فقال لأصحابه (ما أصلحه للرقاد) فمرض ونزلوا به هناك فكان آخر كلامه (الله الحق) وكان ذلك عام 594 هجرية على أرجح الروايات عن نحو خمس وثمانين سنة قضاها داعيا إلى الله. وقد تخرج من دائرته كما قيل ثلاثمائة قطب دون الصالحين على ما رواه الشيخ العلامة سيدي محمد بن عبد السلام بن حمدون البناني، في شرحه على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ المنسوبة لمولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنهم، وتغمدهم برحمته أجمعين.

ومن آثاره المنظومة قصيدة يدور معناها الإجمالي حول التوحيد، والمعنى الإجمالي للقصيدة يدور حول التوحيد فالكل دون الله عدم وكل ما سواه هالك، والكل له مطيع معبر عن وجوده بوجود الله وقد تجلّى ذلك في مجمل أساليب بلاغية منها مطلع القصيدة "الله قل". حيث قُدِّمَ إسم الجلالة وحقّه التقديم في كل حال وتلاه بالأمر بترك ما سواه ، وهو واجب في كل حال أيضا . وكذا قوله فالعارفون فنوا ولم يشهدوا هذه الأداة (لما) ندما تدخل على المضارع تفي النفي التوقعي لا القطعي أي أنهم يتوقعون المشاهدة ويرقبونها ولو أنهم فنوا والفناء هنا في الله وهو الصفاء والتخلص من كل ما سواه . وقد شرحنا مفهوم الفناء عندهم في غير هذه القصيدة .

إِنَّ كُنْتَ مُرْتَادًا (3) بُلُوغَ كَمَالٍ	اللَّهُ (1) قُلْ وَذَرِ (2) الْوُجُودَ وَمَا حَوَى
عَدَمَ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ لَوْلَاهُ	فَالْكُلُّ دُونَ اللَّهِ إِنْ حَقَّقْتَهُ
فِي مَحْوٍ وَفِي اضْمِحْلَالِ (5)	وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ وَالْعَوَالِمَ (4) كُلَّهَا
فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالٍ	مَنْ لَا وُجُودَ لِدَاتِهِ مِنْ دَاتِهِ
شَيْئًا سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ فِي	فَالْعَارِفُونَ فَنُوا وَلَمَّا (6) يَشْهَدُوا وَ
الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْإِسْتِقْبَالِ شَيْئًا	رَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكًا (7)
سِوَى فِعْلٍ مِنَ الْأَفْعَالِ نَظْرًا	فَالْمَخ (عُلُوٌّ إِلَى) بِعَقْلِكَ أَوْ بِطَرْفِكَ (9)
تُوَيِّدُهُ بِالْإِسْتِدْلَالِ بِلِسَانِ	هَلْ تَرَى وَانْظُرْ إِلَى عُلُوِّ الْوُجُودِ
حَالٍ أَوْ لِسَانِ مَقَالِ (10) سُفْلٍ وَ	وَسُفْلِهِ تَجِدِ الْجَمِيعَ يُشِيرُ
مُبْدِعُهَا بغيرِ مِثَالِ عُلُوٍّ إِلَى	نَحْوِ جَلَالِهِ هُوَ مُمَسِّكُ الْأَشْيَاءِ مِنْ

مع المفردات

- 1 - الله : منصوب على التعظيم مقدم و الأصل فيه ، قل الله .
- 2 - ذر : اترك وهو فعل لا ماضي له ، يأتي منه الحاضر و المستقبل فقط .
- 3 - مرتادًا : قاصدًا ومريدًا
- 4 - العوالم : الأكوان و الأفلاك

5 - الاضمحلال : الذوبان و الزوال

6 - لما : حرف نفي و توقع لما يأتي

7 - هالكا : لها معنيان : الخسران وميته السوء ، كما تعني الحرص على الأمر و متابعتة بشدة . وهنا تحتل المعنيين

8 - المح : انظر بخفة و سرعة في تأمل وتدبر .

9 - الطرف : العين : وهي حاسة الإبصار المادية

10 - الحال : في مفهومه اللغوي : هي الصورة الواقعية القابلة للتغير، وعند الصوفيين : هو معنى يرد على القلب من غير تعمل ولا اجتلاب من بسط وقبض أو شوق أو انزعاج أو هيبية أو اهتياج، وقد يُكتسب بحضور حلق الذكر واستعمال السماع، وقد يُطلب اكتسابه بخرق عوائد النفس حين يعتربها برودة وفتور وقد يُطلق على المقام على ما بينهما من تباين.

وله أيضاً رضي الله عنه

فَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنٍ (1) عَقْلِكَ لَمْ تَجِدْ وَ شَيْئاً سِوَاهُ عَلَى الذَّوَاتِ مُصَوِّراً
إِذَا طَلَبْتَ حَقِيقَةً (2) مِنْ غَيْرِهِ فَبَدَيْلِ (3) جَهْلِكَ لَا تَزَالُ مُعْتَرَا

مع المفردات

1 - عين العقل : البصيرة ، وهي قوة التفكير و التدبر و التأمل ، والعقل في اللغة : الرباط .

2 - حقيقة : الحقيقة لغة هي : انتساب إلى الحق وهو جامع مع الأصول الثابتة .

أما عند الصوفية فخلاصتها إقامة العبد في كل محل الوصول إلى الله ، ووقوف سرّه على محل التنزية ، وقيل هي سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل بك فيك منك لأنت . والفرق بين الحق والحقيقة أنّ الحق هو الذات والحقيقة هي الصفات ... وذلك أن المريد إذا ترك الدنيا وتجاوز حدود النفس و الهوى ، ودخل في عالم الإحسان ، يقولون دخل في عالم الحقيقة ووصل إلى مقام الحقائق

مع الأسلوب :

مطلع القصيدة (إذا) وهي ظرف لما يستقبل من الزمان ، ثم البيت الثاني مبدأ بها (إذا وبعد الأولى)

عين العقل وبعد الثانية طلب الحقيقة .

مع الأفكار :

النص بيتان، والفكرة واحدة في أصلها منشقة في اتجاه سيرها. هي واحدة في دعوتها للتوحيد وهي مُنشقة لمن أراد التوحيد، فلا شيء في الكون سوى الله ومن طلب الحقيقة في غير هذا لم يجد ما يطفى ضمأه وفي الإيجاز إعجاز.

وله أيضاً رضي الله عنه

اللَّهُ رَبِّي لَا أُرِيدُ سِوَاهُ هَلْ فِي الْوُجُودِ (1) الْحَيِّ إِلَّا اللَّهُ هَلْ
ذَاتُ الْإِلَهِ بِمَا قِوَامُ (2) ذَوَاتِهَا كَانِ يُوجَدُ غَيْرُهُ لَوْلَاهُ

مع المفردات

- 1 – قوام : قوام كل شيء ركيزته وما يقوم عليه ويثبتته.
- 2 – الوجود لغة : ضدّ العدم ، وعند الصوفية، الوجود فقدان العبد بمحاق أوصاف البشرية ووجود الحق، لأنه لا بقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة. وهو يأتي بعد الارتقاء عن الوجد، وهو أخصّ من الوجد والوجدان لدوامه بدوام الشهود واستهلاك الوجد فيه ، وغيبته عن وجوده بالكلية .

مع الأسلوب :

استهلال ثابت قوي توحيدي أنّ الله (في متبوع باستفهام إنكاري . وفي البيت الثاني تأكيد للأول ... لذواتنا بوجود ذات الله ، واستفهام إنكاري كذلك ... ما سوى وجود الله

مع الأفكار :

نصّ يتألف من بيتين . المعنى واحدة، والفكرة واحدة. هي وحدة الله، في ذاته وصفاته. ثم الاستفهام الإنكاري التعجيزي؛ لمن يدّعي غير ذلك .. ومع قصر النص وقلة ألفاظه فيه قوة إقناع ومنطق تسليم وارتياح .

وله أيضاً رضي الله عنه

مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا صُحْبَةُ الْفُقَرَاءِ فَاصْحَبْهُمْ وَ
تَأَدَّبْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَاسْتَعْنِمِ
الْوَقْتَ وَاحْضُرْ دَائِمًا مَعَهُمْ وَ لَا زِمِ
الصَّمْتَ إِلَّا إِنْ سُئِلْتَ فَقُلْ وَ لَا
تَرَى الْعَيْبَ إِلَّا فِيكَ مُعْتَقِدًا وَحُطَّ
رَأْسُكَ وَ اسْتَغْفِرْ بِلَا سَبَبٍ وَ إِنْ
بَدَأَ (2) مِنْكَ عَيْبٌ فَاعْتَرِفْ وَ أَقِمْ وَ قُلْ
عُيْبُكُمْ أَوْلَى بِصَفْحِكُمْ (3) هُمْ
بِالتَّقْضِيلِ أَوْلَى وَ هُوَ شِيمَتُهُمْ (4)
وَ بِالتَّقْنِي (6) عَلَى الْإِخْوَانِ جُدْ أَبَدًا
وَ رَاقِبِ الشَّيْخَ فِي أَحْوَالِهِ فَعَسَى
هُمُ السَّلَاطِينُ وَ السَّادَاتُ وَ الْأَمْرَاءُ
وَ خَلَّ حَظُّكَ مَهْمَا خَلَّفُوكَ
وَ رَأَى وَ اعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضَا يَخُصُّ مَنْ حَضَرَ
لَا عِلْمَ عِنْدِي وَ كُنْ بِالْجَهْلِ مُسْتَتِرًا
عَيْبًا (1) بَدَأَ بَيْنًا لَكِنَّهُ اسْتَتَرَ
وَ قُمْ عَلَى قَدَمِ الْإِنْصَافِ مُعْتَذِرًا
وَ جِهَ اعْتِذَارِكَ عَمَّا فِيكَ مِنْكَ جَرًا
فَسَامِحُوا وَ خُذُوا بِالرِّفْقِ يَا فُقَرَاءَ فَلَا
تَخَفْ دَرَكًا (5) مِنْهُمْ وَ لَا ضَرَرَ حِسًّا
وَ مَعْنَى وَ غُضُّ الطَّرْفِ إِنْ عَثَرَ يُرَى
عَلَيْكَ مِنْ اسْتِحْسَانِهِ أَنْزَا

مع المفردات

- 1 - عيب : العيب النقيصة ، وهو الذي يشين صاحبه ويحط من مقامه عند غيره .
- 2 - بدا : ظهر ، وبدا له خطر بباله أوراها عيانا
- 3 - صفحك : الصفح أصله الجانب المتسع من كل شيء، كالوجه والصدر، وأصفح فلان عن فلان ولأه وجهه ، وتركه وأعرض عن ذنبه ولم يحاسبه .
- 4 - شيمتهم : الشيمة : تطلق على الطبيعة والعادة والخلق .
- 5 - دركاً : الدرك : بفتح الدال، عمق الشيء وقعره ،ومنه الغرق وما فيه من مصيبة .
- 6 - تقنى : التقنى له معنيان : السخاء والكرم كما هو التستر والإستحياء، وكل المعاني لائفة بهذا المقام، والفتى من لا خصم له، والفتوة عند الصوفية مرجعها السخاء والتواضع والشجاعة في مواطن الإضطراب، وفتوة العامة بالأموال، وفتوة الخاصة بالنفوس، وفتوة خاصة الخاصة بالأرواح وبذل المهج في جانب المحبوب.

وله أيضا رضي الله عنه

وَ قَدِّمِ الْجَدَّ (7) وَأَنْهَضْ عِنْدَ خِدْمَتِهِ فِي رِضَاهُ رِضَى الْبَارِي وَطَاعَتِهِ وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ الْقَوْمِ دَارِسَةٌ (9) مَتَى أَرَاهُمُ وَ أَنَّى لِي (10) بِرُؤْيَيْهِمْ مَنْ لِي وَ أَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُرَاحِمَهُمْ أَحِبُّهُمْ وَ أَدَارِيهِمْ وَ أُوَثِّرُهُمْ (12) قَوْمٌ كِرَامٌ السَّجَايَا (14) حَيْثُمَا جَلَسُوا يُهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْهُ أَخْلَاقِهِمْ طُرُقًا هُمْ أَهْلُ وُدِّي وَ أَحْبَابِي الَّذِينَ هُمْ لَا زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللَّهِ مُجْتَمِعًا ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا عَسَاهُ يَرْضَى وَحَازِرٌ أَنْ تَكُنْ صَجِرًا (8) يَرْضَى عَلَيْكَ وَ كُنْ مِنْ تَرْكِيهَا حَذِرًا وَ حَالٌ مَنْ يَدَّعِيهَا الْيَوْمَ كَيْفَ تَرَى أَوْ تَسْمَعُ الْأُذُنُ مِنِّي عَنْهُمْ خَبِرًا عَلَى مَوَارِدَ لَمْ أَلْفِ بِهَا كَدْرًا (11) بِمُهْجَتِي وَ خُصُوصًا مِنْهُمْ نَفْرًا (13) يَبْقَى الْمَكَانُ عَلَى أَثَارِهِمْ عَطِرًا حُسْنِ التَّلَافِ مِنْهُمْ رَاقِنِي نَظْرًا مِمَّنْ يَجْرُ ذُبُولَ الْعِزِّ مُفْتَخِرًا وَ ذَنْبُنَا فِيهِ مَغْفُورًا وَ مُغْتَفَرًا مُحَمَّدٌ خَيْرُ مَنْ أَوْفَى وَ مَنْ نَذَرَا

7 - الجدّ : الجدّ بفتح الجيم ، القطع و الإسراع و الاجتهاد ، وكلها تليق بهذا المقام ، ومن معانيه البخت و الخطوة كما هو الحظ و الرزق. و في الدعاء « لا مانع لما أعطيت و لا معطي لما منعت ، ولا ينفع الجدّ منك الجدّ » أي من كان له الحظ في الدنيا لم ينفعه ذلك منه في الآخرة .

8 - صجر : الضجر هو القلق والتبرم والميل عن الشيء إلى غيره .

9 - دارس : ذاهب ، زائل

10 - أنى لي : كيف يكون لي ذلك ، وهو شعور بالبعد والامتناع عن المراد .

11 - كدر : بفتح الدال وضمها و كسرهما نقيض الصفاء .

12 - : أوترهم : الإيثار تفضيل غيرك على نفسك مما لك فيه حاجة ، ولها معنيان ،

{ يؤثرون علي أنفسهم و لو كان بهم خصاصة } أي يفضلون غيرهم عنهم، { بل تؤثرون الحياة الدنيا } تفضلونها علي الآخرة ، و تلتقي دلالة اللفظتين

في المفاضلة وعند السادة الصوفية ، الجود والسخاء والإيثار درجات، فالجود ألا يصعب عليه البذل ، فمن أعطى البعض وأبقي الأكثر، فصاحب سخاء. ومن بذل الأكثر فصاحب جود، ومن قاسى الضراء وأثر غيره فصاحب إيثار.

13 - نفر : الجماعة ما بين الثلاثة والعشرة .

14 - السجايا : مفردا سجية وهي الخلق والطبيعة مما نشأ عليه الإنسان وانطبع به .

أهم المصطلحات الواردة في النص :

جاء في النص مصطلحات صوفية عديدة تعرضنا لبعضها في إيجاز ، ونرجئ غيرها إلي مواضع في غير هذا النص، وأتى إلى أخرى حينها، ومما جاء في هذا النص مصطلحا الفقير و الشيخ. لفظة الفقير ثلاثية الأصل يفتح فيها القاف ويكسر ويضم، ولكل حركة دلالة . ففي الفتح فُقر يفقر حفر، و الفقرة الحفرة، ومنها الفقارة في الصحراء، وفقر يفقر بكسر القاف في الماضي اشتكى ألماً.

- وفقر يفقر بضم القاف ضد استغنى، والفقر ضد الغنى، وجمعه فقراء ومؤنثه فقيرات هذا في المجال اللغوي .

- أماعند السادة الصوفية : فالفقر هو نفض اليد من الدنيا ، وصيانة القلب من إظهار الشكوى ، ونعت الفقير الصادق ثلاثة أشياء : صيانة فقره، وحفظ سره، وإقامة دينه. وقال آخرون : الفقير نعته السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود.

- أما الشيخ : فهو الذي استبانته فيه السن، وظهر عليه الشيب، وقد تجاوز الخمسين من عمره ، وشيخته دعوته شيخا ، هذا لغةً.

- أمافي المفهوم الصوفي : فله أوصاف عديدة جليلة جميلة متفاوتة، أشهرها؛ أنه هو الذي سلك طريق الحق وعرف المخاوف والمهالك، يرشد المرید ، يقر الدين والشريعة في قلوب المریدين والطالبين، قدسي الذات والصفات، عالماً بكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، أخذ طريقه عن شيخ محقق، تسلسلت متابعته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا قليل من كثير مما اتصف به المرید والشيخ في الآثار الصوفية. وبعد هذا قد اشتملت هذه القصيدة جملة أهمها ثلاث :

1- أوامر 2- نواهٍ 3- أوصاف .

فمن الوصايا الأمرية التي ينبغي الإتصاف بها، دوام الصحبة والأدب، وحضور المجالس مع ملازمة الصّمت وإطراقة الرأس، والإكثار من الإستغفار، ومراقبة الشيخ في أحواله مقدّمًا خدماتك له .

وما ينهى عنه صاحب النص، ضد كل ما سبق من التخلي عن المجالس ، والإكثار من الحديث و ملاحظة عيوب الغير.

ومن أوصاف الفقراء : أنهم سلاطين و سادات وأمراء، كرام السجايا، طيّبو الرائحة لا يضررون غيرهم، ولا يكدّرون حياة من لم يرافقهم، إليهم تطمئن النفوس وتستكين القلوب، وبهم تستنير العقول، وتُهدّب الطبائع والأخلاق، هم النبيوع الذي لا ينضب، فطوبى لمن عاشرهم ونهل من فيضهم { وفي ذلك قلينا نفس المتنافسون } .